قصيرة

الوصول

صعرد كما ترين، ولكنها قلعة معروسة من احل الحرية والقصة. السارة تمشي وتقطع ما الطرقات، دفائما تستر فسلع السهول والكرم وها هو اول صرح عروس تظهر لنا، معصرد الرسون الالكترونية هي.. صرح المحبة والتعاون والاصرار.. سماها صاحب المعول والفاس وشجره الرسون.. تعله صعود ووجود.. ها هي عرون بطل من احضان الرسون والسين تعله حب هي.. قرية منسية.. حب اهلها واصرارهم على الوجود نسيها — مثل باقي قرانا ومدننا. وسرنا في الطريق.. عنون برافسنا واخرى تودعنا غربا، نحن عن البلد. ولكن حكاية صداقه مسرحمة نربطنا، سالنا واستفسرنا وها نحن نصل الى رابية منخفضة، تحفها الاشواك والصور، ولكن ثمة جنة خضراء تنزرع فيها.. انها بلا شك بيت الصديق، عشنة الخضراء.. وتلك هي الرمانة تحتضن البيت كانه ولبدها.. وهذه هي شجرات التنين تقف كالحراس تحرس المنزل.. وثمة سماء ترتفع فوق هذا وذاك.. ها هو الطاتون كما وصفه عند مدخل المنزل، كناعر هو سمعي ام رسام يرسم لوحة اساسها سشه وجوهرها كفاحه وحياته

ودخلنا الى المنزل، وتحت الرمانة الفسنا.. ووقفنا سطر احدنا الاخر في غير تصديق حمال من العادات والتقاليد الرتة.. افكار بالية واناس نامهور فرفوا سنا تحد واصرار لامل واشراقه تعده، ووجدنا انفسنا نحمل رساله وقصة

— لست مصدقا؟؟

— تبدو انني احلم، ولكني لست كذلك اذا هذه حقيقة.

— اهلا تفضلوا الى المكتبة، تجلس وتناقش.

سنك كما وصفه على الورق كرمه ورمانه وتين، كلوحه فنان صورته.. ارى كل شيء هنا يوحي ادبا وعمقا حساسية وذوقا مفرطا.

— هذه مملكتي الطاولة والكتب والادب.

— رائع.. هل كنت جديدا؟؟

— كنت ترهة، والطريق، وكنت بيتي هذا الذي ابني به طوبه فوق طوبة ابني وازرع لكي احصد ومع كل هذا الكفاح وهذا التعب لا احد لحظات استريح بها عدوب افكر بالهجرة.

— لا يا صديقي صمودك اس هو.. انت تهاجر وتحره التنس والرمان والتعد واهلك.. سنك الجميل الذي تصنب فيه عرقك وجهد الليالي، ارادتك.

— انا ضحيه.

— اعلم انك ضحيه، ولهذا اطالبك بالصمود والايمان، فانت رانه كفاح تحقق في سماء عرون.. رانه لكل سمعة طفل، وشخوخة وشح وعلما لكل شاب ضائع.

— لا استطيع بالأس وبعد سنوات من التدريس تمت برمجتي، فاذا تريد منا اولئك عسد نحن، انا اقبضه لا تكفيني شيء.. فانا كالطاحونة اعمل ليلا ونهارا بدون نتاج او رساله واضحه.

— كيف هذا؟ فذلك سكلم، تحراتك.. اخوتك الصغار، قصصك رايات تتكلم عن انسان يعطي لعطاء الارض والمحبة.

xxxxx

— هل لي بكوب ماء.

وتخرج الانسان الصديق لتحضر لي كوب ماء، سيما انني مع صديقتي

— تبدو لي صديقك انسانا معذبا.

— هو كذلك، ولد بين الفقر والجوع والتشرد كما ترين، وامضى من عمره عشرون عاما وهو ضائع، ضياع شابنا في الارض وبين الجوع والحرمان.. حرمان الشيء واللاشيء

— اراه واعيا مفصحا على عكس ما تقولين.

— فعلا فقد افاق من نومه لتجد امامه ارضا واضحا عمر شرعون واضحاب شرعون بلا ارض لتجد افواه جائعه واناس تصرخ وقصة تصرخ فكان سهله ومرشده الادب والفكر ثم ترجم كل هذا في ادبه

— الماء.. تفضلوا

— الغداء جاهز..

— حسنا ولكننا لن ناكل الا على الارض.

xxxxx

ارى الطفولة التعقد في عيون اطفالهم لو رأيتهم لرأيت عيون البكاء والحزن تخرج من عيونهم. لو لتجتهم للمحب النبوغ والذكاء في عيونهم، ولكنهم كسرهم ممن سبقوهم سيعركهم معركة الحياة والصباع سكون مصيرهم.

وكلل بهاء، وكلل بدائه، اقترب الغيب وغربت الشمس وجاء ما الاسود من دموع الاسى.

امل سامي عصفان

الطفل .... مينكا

الحلقة الاخيرة

— انني اقول الحقيقة، فقد رأيت ذلك بنفسي. ان مينكا مسرور لهذا الخداع الذي تجيده الغرانيق، وها هو يخطو على الشاطئ، وهو يمسك بيد فلاديمير ايليتش، ورفع رأسه الى اعلى، حتى يسمع بشكل افضل، حكاية سوسيباتيش. ساروا بدون ان يشعروا، وها هم وصلوا الان الى جليد النهر. تطلع لينين الى اصدقائه وقال:

— اي شيء ساريه لكم الان...

— أي شيء؟ — تساءل مينكا، وكان يعدل قبعته التي انحدرت على عينيه.

— انظروا الى اسفل.

خفض مينكا رأسه. تحت اقدامهم، جليد شفاف، مثل الزجاج. ومن خلاله يمكن رؤية القعر، حجارة بيضاء، صفراء ووردية،

ويشاهد غصن شجرة بتولا بأوراق خضراء داكنة وصفراء الى حد ما، انها تبدو عالقة بجذع، ممدد تحت الجليد، وكأنما نمت تلك الاوراق على قاع النهر. وحول الغصن تحوم اسراب من الاسماك ذات الزعانف الحمراء.

كان مينكا قد دهش، وتسمر في مكانه وهو ينظر بدهشة وبعيون مفتوحة.

— هل يجري النهر في الشتاء ايضا؟ (١) — سأل مينكا بعد برهة.

— بالطبع، — اجاب لينين. — هل تسمع خريره: "شو — شو — شو.."

ولذلك يدعى هذا النهر شوشا....

انصت مينكا واجاب بخيبة امل:

— لا، لا اسمع.

لكن لينين بنفسه، لا يسمع صوت النهر، الان، لا يسمع حديث الماء وهمساته تحت الجليد، على الرغم من انه بدى له قبل ذلك، وكأنه يسمع فعندما حاول ان يكتب عن النهر قصيدة وكتب اول شطرة منها: "في شوشا على سفح سايان ..." ، ولكنه "... بعد الشطرة الاولى، لم يكتب للاسف شيئا.".

لقد شغف فلاديمير ايليتش، سوسيباتيش ومينكا بالتحدث عن مملكة ما تحت الماء وعن الغرانيق، وهكذا نسواجينكا، التي كانت تتحرك مسرعة من جهة الى جهة، وهي تشم كل شجيرة من التوت الارضي: الا يتوارى هنالك ارنب؟ انها في الواقع ايقظت ارنبا فقفز من مرقده وارسل شقشقة عبر النهر الى ادغال الشجيرات.. وحاولت جينكا اقتفاء اثر الارنب، لكنها عادت بسرعة مستجيبة لنداء صاحبها، وبقيت قلقة لفترة طويلة.

اصبحت الجولات الصباحية، قبل العمل، ضرورية لفلاديمير ايليتش، ودخلت برنامجه اليومي، وكان مينكا فيها، رفيقة الدائم.

وذات مرة، خرق هذا النظام بشكل غير متوقع. جاء مينكا، صباحا، وكالعادة، مع انبلاج النور، طرق الباب ونادى كل اهل البيت:

— وها انا ذا.

ومن الغرفة المجاورة، لم يجاوبه احد، كن يا مينكا قوى الملاحظة، ها لقد لاحظ على الفور، ان فلاديمير ايليتش غير موجود، وذلك من سلوك جينكا. فهي لم تقفز للقائه، ولم تعبر عن ابتهاجها مداعبة اياه بمناسبة قدومه، لقد رفعت اليه عيونا حزينة فحسب، وظلت ممددة في مكانها المعتاد.

لقد اخبروا مينكا، ان فلاديمير ايليتش، سافر في عمل الى كراسنويارسك، ولن يعود قريبا. الا ان الطفل له مفهومة الخاص للزمن. فبعد مضي ساعة، جاء ثانية وسأل:

— هل جاء فلاديمير ايليتش؟

وعاد مينكا الى البيت، ثانية، وهو يعض على شفته، حتى يتمالك نفسه من البكاء.

اما جينكا فقد اغتمت كذلك، بسبب غياب ايليتش، كانت تتمشى في متابرة، وتتتبع نادجدا كونستانتينوفنا، في كل مكان، ومن غرفة الى اخرى. وعند سماع اية ضجة صغيرة في الشارع، كانت تهب واقفة على قوائمها الامامية مرتكزة على قاعدة النافذة تنظر من الشباك. غير انها لاتلحظ احدا تعرفه في الشارع، غمر مينكا.

عاد فلاديمير ايليتش ليلا. كان مينكا في ذلك الحين، يغط في نوم عميق، الا انه ما ان بزغ النور، حتى جاء بملابسه المعهودة، قبعة والده، "وبلوزة" والدته. وما كاد يدخل حتى ركض الى داخل البيت.

— وها انا ذا.

خرج للقائه من الغرفة المجاورة، لينين. كان يحمل بين يديه حصانا (لعبة)، ومع ان مينكا حلم منذ زمن بمثل هذه اللعبة، — فانه لم يندفع نحوها. اضاء الفرح في عينيه، وقد رأى من جديد، فلاديمير ايليتش، يقف امامه.

— اهلا يا، مينيا. لقد احضرت لك حصانا. منذ الان ستركبه في نزهتنا، ولن تمشي ثانية على الاقدام.. ما زحه لينين.

— ولم يبتعد مينكا، طوال النهار، عن فلاديمير ايليتش ولو خطوة واحدة، وفي اليوم التالي اخرج الهدية العزيزة على نفسه الى الشارع — امام صبيان الجيران يفاخر بها. لكنه تبين بأن فلاديمير ايليتش، احضر هدايا، لهم ايضا...

لقد مضت سنة، منذ ان اهدى فلاديمير ايليتش الى مينكا، الحصان. كبر مينكا، لكنه تعلق اكثر بلينين. وذات مرة، قلق الطفل كثيرا، عندما صادف في بيت لينين الاضطراب والتشويش، محل النظام الصارم الذى تعوّد عليه. فقد تناثرت الاوراق على الارض، وأبعدت الحاجيات من اماكنها، المعتاده، وتكدست الملابس في كومة كبيرة.

كانت نادجدا كونستانتينوفنا، تقف امام الصندوق، ترتب فيه بعض الاشياء. وكان فلاديمير ايليتش يتناول الكتب عن الرفوف ويربطها في رزم وكان في البيت ايضا، في ذلك الصباح، المنفيون من توشينسكو — من معارف لينين.

رأى مينكا هذا المشهد، ولم يفهم الامر على الفور. ولم يدرك الذى يجرى هنا. وقد شاركت جينكا الطفل في الارتباك والحيرة. كانت الكلبة منقبضة كئيبة، تمشت بلاهدف من زاوية الى زاوية، وتنشجت بهدوء، او تمددت بجانب الباب، وكأنها تحجز الطريق على احدهم.

فكر مينكا، بعد ان وقف بعض دقائق على العتبة: كل من في البيت الان مشغولين عنه، — واخذ يصمت يلملم الاوراق المتناثرة عن الارض. واخيرا لاحظته نادجدا كونستانتينوفنا، فأهدته الكثير من الاقلام الملونة ورسومات كثيرة، وَرَيْش.

ودون ان يرتاب في الفراق الوشيك، تحرك سريعا داخل البيت، وهو يجر الهدايا المفاجئة.

اخذ المنفيون يخرجون الاشياء من البيت، ويضعونها في الزلاقة. وجلس فلاديمير ايليتش ونادجدا كونستانتينوفنا في الزلاقة كذلك، واجلسوا فيها الكلبة ايضا، عند أرجلهم. وبدأ مينكا يقلق. فاقترب من لهيئين ونظر اليه بعيون حزينة، وكأنما يسأله: "لماذا لا تأخذني معك؟"

— قال لينين، — وداعا يا صديقي، انني راحل عن شوشا، — سنكبر — وسوف نلتقي. سأذكرك دائما. — وجذب مينكا بلطف نحوه وقبّله.

نظر مينكا الى الزلاّقة، التي جلس فيها فلاديمير ايليتش ونادجدا كونستانتينوفنا، وانتظر، على امل ان يأخذوه معهم.

ان الطفل لم يعرف، ان فلاديمير ايليتش، امضى فترة نفيه، وهو يعود الان الى بيته، لكي يواصل الكفاح من جديد، ذلك الكفاح الذى من اجله، نفته الحكومة القيصرية، الى سيبيريا النائية.

وتحركت الزلاّقة مبتعدة...

وفي اليوم التالي استيقظ مينكا باكرا كعادته، فارتدى ملابسه بسرعه، وركض مسرعا الى بيت ايليتش.

وفي لحظة صعد راكضا الى السقيفة، وبحركاته المعتادة، فتح الباب، واراد ان يصرخ: "وها انا ذا".

الا ان الكلبة جينكا، لم تقفز لملاقاته، ولم يسمع من الغرفة المجاورة صوت ايليتش اللطيف المعهود. وسألته المرأة الغريبة، التي تقف بجانب الموقد المشتعل في تحفظ:

— ماذا تريد، ايها الطفل؟

— هل عاد فلاديمير ايليتش؟

— لقد ارتحل دون رجعة.

والان، فقط، فهم مينكا كل شيء، عما حدث... فخرج من البيت صامتا، وجلس على العتبة واستغرق في البكاء.

"انتهت"